

٢ - مصر

في أواخر القرن الثامن عشر

كما يصورها الرحالة سافاري

للأستاذ محمد عبد الله عنان



أشرف سافاري على القاهرة بعد رحلة ممتعة في النيل ، فلم ترقه العاصمة ولم تنهره مناظرها كما بهرتة مناظر الإسكندرية ؛ ذلك أن القاهرة التي كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الاسلام ، انتهت في أواخر القرن الثاني عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا سافاري خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثية وقلعتها التاريخية المنيفة ، ويقدم لنا سافاري عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة ، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اختراع الديناميت ، وإن لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن « الباشا » ذلك أن الانكشارية يملئون البيكوات المصريين ، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا ، وفي داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه العفاء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة ضخمة وجدران زاهية ؛ وفي أحد أبنائها المهجورة تصنع الكسوة النبوية التي يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على « قره ميدان » ، ويمتد الباشا الديوان ثلاث مرات في الأسبوع في غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبت دماء البيكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالي قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعلية ، وإنما هو أداة في أيديهم يحركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين في القلعة لا يستطيع أن يناديها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون في قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمتها السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظره عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها وما ذنها وحدائقها

تعود إلى زميلتها فيستأنفن جر « اللبان » ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى متدبل مما في حقيقتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هي أيضاً تحتاج إلى متدبل فناولناها إياه ، وبدا لها أن الثالثة قد تطلب متدبلها فيحسن أن تأخذ لها على سبيل الاحتياط ، فأجبناها إلى ماطلبت ، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المتدبل فهي ترده لنضعه حيث كان فأطعنا ومضت ، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول : إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المتدبل ، فدعونا الله أن يعيننا على الصبر وأعطيناها المتدبل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الجبل ولا يدع للفتيات إلا المظهر

ولما جاء وقت الطعام تخبرنا رقعة من الأرض خضراء ظليلة رتأهنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشغقات من البلب كأنما في ما يخشين على ثيابهن التي خططها الجبل بالوحل فنشرنا من متادبلنا فان منادياهن لا تصلح لشيء إلا للزينة . فجلسن عليها الرماح استقامة ، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة تعب لهن ، وأن خوفهن البلب ينقص عليهن ولكن ماذا كان معنا أن نصنع ؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومتكآت وما إلى ذلك لفعلنا . ولكننا لم كن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التي تصلح للعرض ولا تصلح حلة على النيل .

وانحدرت الشمس قبل أن تعود إلى قصر النيل فكذن ييكن نهن تأخرن وكن على موعد مع الخطيطة ، فعجبنا لا تمادهن ما في يوم يخرجن فيه لثل هذه الرحلة التي طلبنها وأردن أن نفرق النهار كله ... ولكن المرأة هكذا أبداً ... تكون لها عين الجنة وعين في النار . ولست ألومها أو أعيبها فإنها طبيعتها التي حيلة لها فيها ، ولكني أرجو ألا ألام - وأن أعذر - إذا بنت أشعر بالحيرة والعجز في كثير من الأحيان عن الفهم صحيح والتقدير المرضي المريح ؛ وأحسب أن الرجال جميعاً مثل لمة مساكين . ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من أع الرجل وسلوكه ، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان يقنما أنفسهما بأنهما متفاهان ، وأن كل شيء بينهما على ما يرام

إبراهيم عبد القادر المازني

مائدة الطعام جلوساً على البسط ؛ وبعد الغداء يأوي المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم ؛ وفي المساء يترضون في النيل في قوارب الزهرة ، ويتناولون المشاء بعد الغروب بنحو ساعة . وهكذا تجرى الحياة على وتيرة واحدة . ويشغف المصري بالتدخين ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالمنبر . وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه ؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتي الخادم بقمقم تحترق به العطور ، فيعطر للمدعويين الحام ، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم .

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها في ذلك العصر ؟ يقول لنا سافاري إنها كانت كالرقيق لا تلعب أى دور في الحياة العامة ؛ وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش ، وتقود الآداب والمعادن ، فإن دولة المرأة في مصر لا تمتد إلى « الحريم » ولا علاقة لها بالشئون العامة . وأعظم أمانها أن تنجب الأولاد ، وأهم واجباتها أن تمنى بتربيتهم . والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها ، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة . كذلك يعنى النساء بالشئون المنزلية ، ولا يشاركن الرجال في الظهور ، ولا يتناولن الطعام معهم إلا في فرص خاصة ، ويقضين أوقات الفراغ بين الجوارى والفناء والسمر ؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين في الأسبوع . وهنا يصف لنا سافاري حمامات القاهرة ، ومناظر الاستحمام والزينة ، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن ، وهناك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالى التزين والفرح ، ويستمتعن في الإبهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب ، ويحمل الجوارى القهوة ، ويدور الحديث والسمر ، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة ، وعند الانتهاء من تناولها تحمل الجوارى قمار ماء الورد فينسل المدعوات أيديهن ، ثم يحرق المنبر وترقص الجوارى . وفي أثناء هذه الزيارات النسوية لا يسمح للزوج أن يقترب من الحريم ، إذ هو مكان الضيافة الخاصة ، وهذا حوزاً تحرص المصريات عليه كل الحرص . وقد يفتنن به أحياً لتحقيق أمنية غرامية ، إذ يستطيع الماشق أن ينفذ إلى الحرن متسكراً في زى امرأة ، فإذا لم يكتشف أمره فاز يفتنه ، وإذا

وهنا لا يملك سافاري نفسه من أن يصيح : « ان أطل من هذه النظرة لتأخذ نشوة من التأملات اللذيذة » ولكن بفشاء في الحال كآبة ، فيقول لنفسه : « ان هذه البلاد الفنية التي كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ؛ أجل إن الطفيان ليسحق بنيره الحديدي أجل بلاد العالم ؛ والظاهر أن شقاء الانسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده ... »

هكذا يقدم لنا سافاري ذلك المنظر الحزن منظر مصر الاسلامية وقد أودى الحكم للترك الغاشم بكل عظمتها وبهاثها السابقين .

ويصف لنا سافاري ثغر بولاق الذي كان مدخل القاهرة يومئذ ، ومرساة الضخم الذي ينص بمئات السفن ، وما به من الخانات التي خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائهم . وفي مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن الزهرة البديعة التي يتخذها البيكوات وغيرهم من الأكابر للزهرة والسمر في النيل أيام الصيف الحارة ولا سيما في الليالى القمرية . ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والقياس ، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه ؛ وهناك في الروضة على مقربة من القياس كانت طائفة من القصور الفخمة التي خصصها البيكوات للتنزه فيها مع حريمهم وهي منزلة تحيط بها الرياض الفيحاء ، ولا يسمح لانسان بالاقتراب منها ولا سيما حيناً يوجد بها حريم الأمراء .

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها سافاري بكثير من عنايته ، ويفرد لها عدة رسائل شائقة ؛ وهو يصف المصري بالكسل ، ويقول لنا إن الجو يؤثر في عزيمته ، ومن ثم فانه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة ، ويقضى يومه في عمله وفي منزله ، ولا يعرف المصري صخب الحياة الأوربية ونحيبها ، وليست له أذواق أورغبات مضطربة . ونظام العائلة المصرية عريق في المحافظة ، فرب البيت هو السيد المطلق ؛ ويربى الأولاد في الحريم ويدبنون للوالد بمتنهي الخضوع والطاعة والاحترام ، ويميش أفراد الأسرة جميعاً في منزل واحد ، ويتمنع الوالد بكل مظاهر التكريم والاحلال ولا سيما في شيخوخته . ويجتمع أفراد الأسرة حول

سافارى لوصف رحلته في الوجه القبلى ، ووصف مدنه وآثاره وواحاته ، ثم وصف الجب والاقليم والزراعة والتجارة ، وديانة المصريين القدماء وأهلهم ، والنيل وخواصه الأثرية ؛ وهذه الرسائل تحتوى كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة ، يدانها لا تقدم إلينا جديداً يمتد به ، ولذا اكتفينا بالإشارة إليها

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق سافارى عن مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، وهى رسائل لاشك في قيمتها وأهميتها ؛ وإذا استثنينا مذكرات الجبرى ، فإن رسائل سافارى تعتبر أنفس وثيقة من نوعها عن أحوال مصر في هذه الفترة المظلمة من تاريخها ؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بأفاضة لا نجدها في مصادر أخرى ؛ فهى من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة . وقد كانت بحوث سافارى بلا ريب مصدراً من أقوم المصادر التي انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعد حيناً وضموا موسوعتهم الشهيرة في « وصف مصر » بعد ذلك بنحو ربع قرن (١)

تم البحث

(فينا في أوائل سبتمبر)

محمد عبد الله عنانه

(١) اعتدنا في استعراض رسائل سافارى على الطبعة الكاملة من رسائله التي ظهرت سنة ١٨٨٥ في ثلاثة أجزاء ؛ واعتدنا في نقل ترجمته الشخصية على مدغم لاروس الكبير

اكتشف أمره كان جزاءه الموت . والرأفة المصرية مفرطة في الحب والجوى ، مفرطة في البغض والانتقام ، وكثيراً ما تنتهى الروايات الغرامية بفواجع مروعة

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هى طبقة القيان «العوامل» ، هؤلاء العوامل يمتزجن بالإدلافة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائية ، لا تخلو منهن حفلة ، وتقام لهن منصة يفنن من فوقها ، ثم نزلن إلى البهو ويرقصن في رشاقة ساحرة ، وأحياناً يبدن في شور مشيرة من التهنك ، ويدعون دائماً في كل حريم ، وهناك روين القصص الغرامية ويخلجن الألياب بذلاقتن ورشاقتن فصاحتن .

وهكذا يحدثنا سافارى بأفاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية ، أواخر القرن الثامن عشر ، ولأحاديثه في هذا الوطن قيمة خاصة ؛ فهى أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه ، وملاحظات لية مستنيرة ، تمتاز بآرائها ودقتها فيما نلاحظ وفيما تصف ونعرض

وأخيراً يصف لنا سافارى آثار هليوبوليس والجيزة ؛ ويقدم عن الأهرام وأبى الهول صوراً شعرية ساحرة ، ويستعرض لف الروايات عن أصلها وبنائها منذ هيرودوت إلى عصره ، سف لنا متفيس وأطلالها ، ومحدثنا عن الجيزة وخططها وتاريخها ن القساطر ومعالمها وكنائسها وآثارها ، كل ذلك بأفاضة ممتعة نلها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة ؛ ثم يحدثنا بعد ذلك رحلته في دمياط وضواحيها ، وكيف تتبع في رحلته سير حملة يس لويس الصليبية منذ نزولها في دمياط وسيرها بعد ذلك ، مدينة النصورة . ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهذه الحملة برة مشتقة من المصادر الإسلامية ومذكرات دى جوانفيل خ الحملة وأحد شهودها

وإلى هنا تنتهى رسائل سافارى عن الوجه البحرى ومدبنة مرة والحياة الاجتماعية المصرية ، وهذه الرسائل تشغل الجزء ل من مؤلفه عن مصر ، وهى أهم وأقوم ما فى المجموعة . أما الرسائل ، وهى تشغل الجزئين الثانى والثالث ، فيخصصها

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

نطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الرقم ١٢ قرناً